أزمة شـــعر صـــدر الإســـلام

"قراءة جديدة"

☜إعـــداد

د.محمـد أحمـد العامري

أستاذ الأدب القديم والنقد المشارك

كلية التربية – جامعة صنعاء

تمهيد

أدرك العرب منذ العصر الجاهلي قيمة الشعر والشاعر في حياتهم ، ومن ثم كان احتفاؤهم واحتفالهم بنبوغ شاعر منهم، وحرصهم على حفظ شعره وروايته جيلاً بعد جيل ، لا يملون من هذا ولا يسأمون(١) ، وقد سجل أحد الشعراء البكريين هذه الظاهرة في قوله :

ألهى بني تغلب عن كل مكرمة قصيدة قالها عمرو بن كلثوم

يروونها أبداً مذ كان أولهم يا للرجال لشعر غير مسؤوم(٢)

وإن كان المعنيُ هنا هم بني تغلب ، لكنهم ليسوا وحدهم أصحاب هذا الصنيع مع شعر شعرائهم ، فكل العرب فيه بنو تغلب.

وهكذا تواصلت عملية الرواية على مستويات مختلفة ومتعددة حتى أسلمت الشعر إلى عصر التدوين، فقام العلماء منذ القرن الثاني الهجري بعملية جمع واسعة النطاق للشعر العربي من مواطنه ومظانه ، ومن ثم قام من بعدهم بتلقيه ، وتصنيفه إلى دواوين، لكنهم لاحظوا أن ما بين أيديهم من شِعر صدر الإسلام دون ما هو موجود من شعر الجاهلية حجماً ومستوىً أدبياً، وقيمة فنية ، وبناء قصيدة. فكانت هذه أزمة تحتاج إلى حل ، أو ظاهرة تحتاج إلى تفسير وتعليل ، وفعلاً حصل ذلك وإن كان من غير إعلان ، أو ربما دون وعي فذهب بعض محاولاً تفسير ذلك، فلم يجدوا شيئاً ذا بال طرأ على حياة العرب، يطلق عليه

١) المصادر الأدبية واللغوية في التراث العربي ص٥٩ .

٢) الأغاني ٥٤/١١

سبب ذلك القصور الشعري في هذه الحقبة، فاللغة هي اللغة، والبيئة هي البيئة، والشعراء كثير منهم مخضرمون عايشوا الحقبتين، حسان ، ولبيد، والحطيئة ، وكعب بن زهير ، والخنساء، وسويد بن أبي كاهل، والشماخ ، وأبو ذؤيب الهذلي ، وعبد بني الحسحاس ، والحصين بن الحمام المري ،وعبدة بن الطبيب، وعمرو بن أحمر الباهلي ، وعمرو بن شاس ، وعمرو بن أوس المزني ، وغيرهم، فلم يجد أولئك شيئاً جد ، ولا أمراً ذا بال طرأ على الساحة العربية يمكن أن يكون هو صاحب ذاك التأثير الكبير غير الإسلام والقرآن يمكن أن يعلقوا عليهما سبب تراجع الشعر، لاسيما وأن هناك ظواهر لبعض النصوص الدينية تنتقص من الشعر.

بالمقابل عزَ على آخرين – وهؤلاء في المحدثين أكثر– أن يسلموا بذلك، منطلقين من عاطفة دينية تحيزت للإسلام أن يتهم بمحاربته للآداب والفنون، فردوا أدلة السابقين، وأنكروا ضعف الشعر وتراجعه في صدر الإسلام ، على رغم كون ذلك أمراً بيناً ، واكتفى طائفة بذلك عوضاً عن أن يبحثوا عن الأسباب الحقيقية الكامنة وراء ضعف الشعر في صدر الإسلام ، ولو استوعبوا أن ليس ثمة بالضرورة تلازم بين الإسلام وقوة أو ضعف الشعر، وأن الشعر قيمة جمالية محايدة ، أو على نحو ما يقول القاضي الجرجاني:" والدين بمعزل عن الشعر"(١) ، وصنيعهم هذا في رأينا دفاع عن الإسلام ليس موفقاً، بقدر ما هو غفلة منهم عن خصائصه وتصوراته ، فالإسلام ينظر إلى الشعر كغيره من سائر النشاط الإنساني ، فهو لا يقبل كل شعر على علاته ، ولا يرفض كل شعر

---

١) الوساطة بين المتنبي وخصومه ص٦٤

مع حسناته ، والمعيار في ذلك قربه وبعده ، أو موافقته ومخالفته لمبادئه [1]، فلن تكون هناك نظرة حدية واحدة انتظمت الشعر كله ، لو علم هؤلاء ذلك لصرفوا جهودهم في استقصاء الأسباب الحقيقية وراء ضعف الشعر في صدر الإسلام.

ولن نتعرض لمناقشة أدلة الفريقين أو حتى سردها إلا بمقدار ما له علاقة بهدف بحثنا فذاك أمر لا يغنينا هنا كثيراً، إذ هو طريق موطوء كثر سالكوه، وكفاناه الكثيرون، لكننا سنشير إلى أهم شخصيات الطرفين ، وبعض ما يربطها بصلب موضوعنا الذي يتمثل في بيان أثر الرواة ودورهم المباشر وغير المباشر في بذر ، وإذكاء التناقض الحاصل حول شعر عصر صدر الإسلام.

فمن أبرز من ذهب إلى القول بضعف الشعر في صدر الإسلام من القدامى الأصمعي وله قوله:"الشعر نكد بابه الشر فإذا دخل في باب الخير لان"[2] ، ولعله في قوله هذا متأثر بقول الله تعالى : "والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون" [3] ، وفي معرض قناعته المنبثقة من هذه الآيات لم يعدم دليلاً من واقع الشعر سطره بعد قوله السابق "هذا حسان

---

[1]) ينظر: تجارب في النقد الأدبي التطبيقي،ص٢٠.

[2]) الشعر والشعراء ص٦١،وينظر شعر صدر الإسلام من منظور التصور الإسلامي ص٢٩.

[3]) سورة الشعراء (٢٢٤-٢٢٦).

فحل من فحول الجاهلية فلما جاء الإسلام سقط شعره"(١). "ظاهرة الفارق الكبير هذه بين شعر حسان في الجاهلية وشعره الإسلامي اكتشفها الأصمعي ، لكنه – ربما–أخطأ أو تعسف في التفسير(٢)" لعل سبب ذلك أنه "وجد نفسه أمام شعر حسان الإسلامي في مأزق وهو صاحب عقيدة دينية تشده إلى الشعر الذي يرتبط بالدين ، لكنه أيضاً لغوي وراوية ، تدرب ذوقه على طابع معين من الشعر فلم يعد يستسيغ غيره ؛ لذا كان مخرجه الوحيد من مأزقه هو أن يبعد الشعر كلية عن طريق الخير(٣) ومما يؤيداً لذلك ، ويوحي أن الأصمعي غير مقتنع بدقة هذا الاستدلال ، أو على أحسن حال تراجع عنه، ما ذكره صاحب الاستيعاب أن الأصمعي قال : "حسان أحد الفحول". فقال له تلميذه أبو حاتم السجستاني : "تأتي له أشعار لينة"، فيرد الأصمعي مبرئاً شعر حسان من الضعف واللين "تنسب إليه أشياء لا تصح عنه"(٤)، وهذا ولا شك منصب على شعره الإسلامي. وأياً كان الأمر فإن قول الأصمعي الأول كان إماماً رائداً تبعه كثيرون، لإمامة الأصمعي في العربية، ولصحة دينه ، وبراءته وسلامته من تهمة الشعوبية والزندقة.

---

١) الشعر والشعراء ص٦١، وهذا القول أخذه ابن سلام فقال:"وقد حمل عليه ما لم يحمل على أحد ، لما تعاضهت قريش واستبت،وضعوا عليه أشعاراً كثيرة لا تليق به" طبقات الشعراء ص١١٥.

٢) مقدمة في نظرية الشعر الإسلامي ، عباس المناصرة، ص١٢٥.

٣) مقدمة لنظرية الأدب الإسلامي ، د. عبد الباسط بدر، ص١٤٥.

٤)الاستيعاب في معرفة الأصحاب.١/١٣٠.

حديث الأصمعي هذا ، ومن تبعه عن أزمة الشعر عند حسان هو حديث عن أزمة الشعر في صدر الإسلام ممثلاً بأبرز شخصياته، لذلك أصبح حسان مركز الدائرة التي يدور حولها الحديث عن أزمة شعر صدر الإسلام عند من يرى ذلك. وممن نحا هذا النحو تلميذ الأصمعي ابن سلام الجمحي صاحب الطبقات، يقول في طبقاته : "فجاء الإسلام فتشاغلت عنه (الشعر) العرب وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ولهت عن الشعر وروايته" (١).

وعلى إثر الأصمعي وابن سلام جاء ابن خلدون الذي يقول في مقدمته: "وانصرف العرب عن ذلك(الشعر) أول الإسلام بما شغلهم من أمر الدين والنبوة والوحي، وما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه، فأخرسوا عن ذلك وسكتوا عن الخوض في النظم والنثر زماناً"(٢).

والحق أن العرب لم ينشغلوا عن الشعر في صدر الإسلام ، وإنما أبو عمرو بن العلاء والأصمعي وابن سلام وغيرهم من العلماء والرواة هم الذين انشغلوا عن شعر صدر الإسلام ، ولم ينـدهش العرب ولم يذهلوا بالإسلام والقرآن عن الشعر، ولكن الرواة ذهلوا، وانشغلوا بشعر الجاهلية وأحاديث البادية ، ونوادر الأعراب ، عن شعر صدر الإسلام.

وفي عصرنا الحديث، فقد حمي الأمر، واشتد الجدل حول هذه القضية، وتنوع التناول بنفسيات مختلفة ، ودوافع متباينة ومختلطة: علمية حيناً، وعصبية وانفعالية أحياناً ، فهناك من استمر على رأي الأصمعي وأتباعه في القول

---

[١])طبقات ابن سلام ص٥١.

[٢]) مقدمة ابن خلدون ص٧٤٣.

بضعف الشعر في صدر الإسلام منطلقين من الاعتبارات السالفة نفسها، من أولائك عبد الله البردوني في قوله: "حتى إننا نكاد نتصور دهشة الإسلام أكبر مفحم للشاعر والشاعرية، وأعظم شاغل عن التصور، والتخيل ؛ لأن ذلك الحدث الذي غير المفاهيم وقلب دنيا العرب كان أكبر من تصور الشاعرية ، لهذا هدأ الشعر هدوءاً شبه تام ثم امتد الخمول على الشعر حتى أيام معاوية"(١). ويقول د. عابد الهاشمي : "لذا فإن أبواب الشعر تضاءلت، وامحى بعضها من خلال القيم الإسلامية الجديدة، وهزل عدد الشعراء لانشغالهم بما هو أعز منه قولاً وعملاً وجهاداً، كما هزل عددهم في عهد الخفاء الراشدين بسبب انشغال المسلمين بالفتوحات في مشارق الأرض ومغاربها، وبالدعوة إلى الإسلام، إلا ما نسمع من أراجيز وأشعار حماسية"(٢). ويقول د. رعد الزبيدي: " لم يشهد الشعر العربي أزمة قوية في تاريخه الطويل مثلما شهدها عصر صدر الإسلام"(٣). كما نجد من أصحاب هذا الرأي من نحى منحىً أو مناحي أخر غير تلك التي نحاها الأصمعي وأصحابه، فقد تمتزج أراء بعضهم بغير قليل من الجرأة المهذبة حيناً، وتتسم بعض عباراتهم بشيء من الفجاجة حيناً آخر؛ ولعل دافع ذلك محاولة الظهور بمظهر الناقد المحايد المتجرد من المؤثرات ، من أولئك مثلاً: د. داود سلوم في كتابه الشاعر الإسلامي تحت سلطة الخلافة حيث يقول : " وخسر

---

١) رحلة في الشعر اليمني قديمه وحديثه ص٢٥.

٢) الأدب الإسلامي في صدر الإسلام والعصر الأموي ص٢٠.

٣) أزمة الشعر في صدر الإسلام ص١٥٤.

الشاعر في الإسلام حريته الفردية باعتناقه العقيدة الجديدة)"[1] ، وتكرر هذا المعنى في قوله : " فقد اضطر الرسول – صلى الله عليه وسلم– الذي قدر شاعره حسان حق قدره وأكرمه إلى جلد هذا الشاعر في مسألة الإفك، ولم يتمكن هذا الشاعر إلا أن يقع في نلك المأزق المحرج مع نبيه طبقاً للطبيعة الصريحة للفنان"[2]. وإن كنا قد أخذنا على أنفسنا عدم مناقشة الأدلة كما أسلفنا؛ لأننا لسنا طرفاً فيها ، بل أصحاب نظرة نظنها جديدة إلا أننا لا نوافق د. داود سلوم في بعض طرق تناوله ؛ لأنها على فائدتها لا تخلو من عوامل خدش لمشاعر كثيرين أو قليلين، دون فائدة علمية مضافة ، والناقد ومؤرخ الأدب في غنى عن ذلك.

وقريب من هذا القول قول د. رعد الزبيدي : "وهكذا نشعر أن الحرية والمرونة التي تمتع بها الشاعر قبل الإسلام ذابت كثيراً بعد الإسلام"[3].

وممن ذهب إلى ضعف شعر صدر الإسلام من المحدثين أيضاً: جورجي زيدان في كتابه(تاريخ آداب اللغة العربية)، ود. شكري فيصل في كتابه(تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام)، ود. محمد عبد المنعي خفاجي في كتابه (الحياة الأدبية في عهد صدر الإسلام)، ومحمد عثمان علي في كتابه (في أدب الإسلام)، ود. عبد القادر القط في كتابه (في الشعر الإسلامي والأموي)، ومنهم كذلك د. نجيب

---

[1]) الشاعر الإسلامي تحت سلطة الخلافة ص١١ .

[2]) السابق ص١٠ ،وقد رد عليه د.علي كمال الدين في كتابه شعر صدر الإسلام بين الفكر والفن ص٣٠٣١.

[3]) أزمة الشعر في صدر الإسلام ص١٥٦ .

البهبيتي، ود. طه الحاجري وغيرهم، وقد تتفق أو تتقارب أو تختلف الدوافع والمؤثرات لكن النتيجة واحدة .

ولأن هذه المسألة فيما يظهر لي لم تكن في القديم ذات بال، أو مثار جدل، أو محل خصومة، لذلك لم تنبر شخصيات علمية للرد على الأصمعي وابن سلام وابن خلدون ، غير أن الأمر اختلف مع المحدثين فهناك كثيرون في الاتجاه المضاد ، قائلون بعدم ضعف الشعر في صدر الإسلام، ومنهم من سل سنانه ولسانه، لمناقشة أراء القدامى وردها، ودحض (ما يرونه) شبهات للمحدثين ودفعها، من أولئك: د. شوقي ضيف في بعض مؤلفاته، ومنها العصر الإسلامي وفيه يقول : "تزخر كتب الأدب والتاريخ بما نظم من أشعار في صدر الإسلام، وهي أشعار كثيرة"(١). ويقول : "وليس بصحيح أنه (الشعر) توقف أو ضعف كما ظن ذلك ابن خلدون، وتابعه بعض المعاصرين)"(٢) ، وله فيه ردود على ابن خلدون ، وعلى بعض الأدلة التي ذهب إليها غيره ممن هم على رأيه. ومن أنصار هذا الرأي أيضاً محمد مصطفى هدارة في كتابه الشعر في صدر الإسلام والعصر الأموي، وتناول ذلك في فصل كامل من ص٧١-١٢٩، وركز في رده على المحدثين أمثال جورجي زيدان، ود. شكري فيصل وغيرهما(٣) ، وناقش أدلة الطرف الآخر. وتعرض للأمر أيضاً في مؤلفات أخر منها كتابه: دراسات ونصوص من الأدب العربي ، ومنهم كذلك د. محمد عادل الهاشمي في كتابه

---

١) العصر الإسلامي ص٤٢

٢) نفسه ص٤٣ .

٣) ينظر : الشعر في صدر الإسلام والعصر الأموي ص٧٢ وغيرها .

الصغير المفيد (شعر عصر صدر الإسلام من منظور التصور الإسلامي)، وفيه يحشد أدلة كثيرة توضح الموقف الإيجابي للإسلام من الشعر، ويناقش أدلة القائلين بضعف الشعر في صدر الإسلام(١) ، ويوضح سبب الموقف السلبي لعلماء العربية من شعر صدر الإسلام(٢)، رافضاً اتهام شعر صدر الإسلام بالضعف، ويعزو ما يظنه الناس ضعفاً في شعر صدر الإسلام إلى اختلاف المقاييس والأهداف والغايات التي ينظر إليها النقاد ويعتبرونها منطلقين من الشعر الجاهلي،عن تلك المقاييس التي جند شعر صدر الإسلام لها نفسه وسعى فيها، وهو رأي فيها وجاهة وجدة.

وممن رفض الأسباب التي زعمها القائلون بضعف الشعر في صدر الإسلام، وناقشها نقاشاً علمياً رصيناً ودينياً دقيقاً، بأسلوب لا يخلو من حدة، لكنها في موطنها غالباً د. على كمال الدين الفهادي(٣). ومنهم د. عائشة عبد الرحمن في كتابها:(في أدبنا القديم والمعاصر)، و د. يحيى الجبوري في كتابيه(الإسلام والشعر)، و (في الشعر الإسلامي والأموي)، وغيرهم كثير .

ومما يلاحظ في مواقف وردود أصحاب هذا الاتجاه أن كثيراً منها يصاغ بأساليب حادة تتسم بعاطفة دينية جياشة، يحاول أصحابها أن يكللوها بهالة توحي من أول وهلة لقارئها أنها موجهة ضد أناس معارضين للإسلام متهمين له بما لا يليق به، على أننا لا نعدم في كتابات بعض المعاصرين ما قد يوحي

---

١) ينظر : شعر عصر صدر الإسلام من منظور التصور الإسلامي ص٧-٢١ .

٢) نفسه ص٢٢- .

٣) ينظر كتابه : شعر صدر الإسلام بين الفكر والفن ص٣٠ وما بعدها .

بصحة أو وجاهة طرح هؤلاء، وأن الأمر منهم ليس مجرد سوء ظن، بل قد نجد من يظهر تحيزاً متعمداً ضد موقف الإسلام المتزن من الشعر بوضوح ، أو من خلال تعبيرات توحي بشيء من ذلك ، لكن ينبغي ألا نتطرف أو نبالغ في الأمر فنعد كل منتقص لشعر صدر الإسلام منتقصاً للإسلام أو معادياً له أو متهماً إياه بمحاربة الشعر والآداب والفنون، فالشعر قيمة فنية جمالية محايدة ليس له دين ولا مذهب ، وإن وظفته مذاهب ما وأهواء وأساءت توظيفه فتلك ليست جريمة الشعر ، وإنما جريمة الإنسان. وقد صرح بهذا القول القاضي الجرجاني حين ذهب إلى أن الديانة ليست بعار في الشعر(١).

والدفاع عن الشعر أو مهاجمته لا تعني بالضرورة أن ذلك متجه نحو الإسلام ، دفاعاً أو مهاجمة فأول القائلين بضعف شعر صدر الإسلام كانوا أناساً مشهوداً لهم بالتدين الصحيح، كما أسلفنا عن الأصمعي وابن سلام ؛ وإلا فحضور مثل هذه الاعتبارات في عقل الكاتب ونفسيته كفيلة أن تؤثر على المعايير الفنية الخالصة عند تناوله للنص ، ولن يكون هناك تجرد فني كامل ومعيارية علمية خالصة.

بعد هذا السرد الموجز لطائفة من أقوال وحجج أصحاب المذهبين، بالقدر الذي وضح لنا الأزمة التي حلت بشعر صدر الإسلام ، وخلعها بالتالي على متناوليه، يمكن تلخيص وإيجاز دوافع أو أدلة القائلين بضعف الشعر في صدر الإسلام في أمر واحد، مؤداه هو قلة ما بين أيدينا من شعر صدر الإسلام وتدني مستواه الفني الجمالي وقيمته الأدبية قياساً بشعر الجاهليين ، وشعر الأمويين.

---

١) ينظر:الوساطة ص٦٤

وأدلة القائلين بعدم ضعف الشعر في صدر الإسلام هي حشدٌ من الأحاديث والآثار التي تبين موقف الإسلام الإيجابي من الشعر، وبيان حدود ومحدودية النصوص التي توحي بعكس ذلك ، وتخصيصها بنوعية من الشعر، ودافعهم في ذلك -غالباً- عاطفة دينية تحيزت للإسلام أن يتهم بمعاداة الشعر والفن. والأمران في تصوري صحيحان لا يعروهما تناقض ، فالإسلام لم يحارب الشعر ولم يعاد الشعراء ، بل أعلى من شأن الكلمة وكان النبي صلى الله عليه وسلم يستنشد الأشعار ويستعذبها، وكان له شعراؤه، بل عد الشعر سلاحاً مشروعاً ، وصورة من صور الجهاد في سبيل الله ، وباب من أبواب الأجر والمثوبة.وصحيح أيضاً أن ما بين أيدينا من شعر صدر الإسلام لا يرقى إلى مستوى الشعر الجاهلي كماً وكيفاً، ولا أرى لمخالفٍ في هذا مسوغاً كيفما كان دافعه، ومهما تذرع بالحجج والبراهين، ذلك أن الأمر محسوس وملموس ؛ فكم بين أيدينا من شعر صدر الإسلام يرقى إلى مستوى المعلقات ، أو يرقى إلى أشعار امرئ القيس والنابغة وزهير والأعشى وغيرهم من شعراء الجاهلية؟ وكم هو شعر صدر الإسلام الذي بين أيدينا مقارنة بأشعار الجاهلية؟ ومما يجدر ذكره هنا أن أحد الباحثين المهتمين ، يذكر أنه بعد محاولات جادة لإحصاء عدد القصائد لشعراء صدر الإسلام الذين حققت دواوينهم وجمعت أشعارهم ، وجد أن عدد الشعراء (١٨) شاعراً ، والقصائد (١٥٨) قصيدة[١]، فكم يساوي هذا

١) ينظر شعر صدر الإسلام بين الفكر والفن ص٩٥.

بالنسبة إلى ما بين أيدينا من دواوين ومجاميع الشعر الجاهلي؟ وكم هي نسبة المقطوعات إلى القصائد في شعر الجاهلية، وفي شعر صدر الإسلام؟

عوامل إثراء للشعر جدت بمجيء الإسلام

من خلال ما سبق يتضح أن الموجود بين أيدينا من شعر صدر الإسلام ضعيف هزيل بالنسبة لشعر الجاهلية ، هذا على الرغم من أن هناك أموراً كثيرة كان يتوقع منها، بل مفترض فيها، أن تكون مصادر قوة وعوامل إغناء وإثراء لشعر صدر الإسلام يتفوق بها على الشعر الجاهلي ، وهذا أمر يجعلنا نتوقف إزاء الأحكام الجازمة بأن ذلك الضعف الذي نجده فيه كان سمة لازمة ، وحقيقة واقعة. من تلك العوامل:

١-*الحروب والأحداث الجسام:*

أدرك الناقد العربي القديم أن كثرة الحروب وتوالي الأحداث عامل مهم من عوامل غزارة الشعر، وملهم لقرائح الشعراء، وشاحذ لهممهم، وباعث للكامن من الإبداع القولي، فالحاجة أم الاختراع كما يقال ، يقول ابن سلام الجمحي :" وإنما يكثر الشعر بالحروب التي تكون بين الأحياء نحو حرب الأوس والخزرج، أو قوم يغيرون ويغار عليهم ، والذي قلل شعر قريش أن لم يكن بينهم ثائرة ، ولم يحاربوا، وذلك الذي قلل شعر عمان"(١)، وهذه نظرة صحيحة لها من الواقع أصدق دليل ، فعلى حين لم يكن لمكة كثير شعر قبل الإسلام زخرت المدينة به يقول أنس بن مالك : " قدم علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وما في

---

١) طبقات ابن سلام ص١٣١ .

الأنصار بيت إلا وهو يقول الشعر.[1]، وكان موقد ذلك كثرة الحروب بين الأوس والخزرج ، وهما قبيلتان يمنيتان ليستا نزاريتين، والأصل أن حظهما من الشعر قليل كما يحلو للبعض الإصرار على ذلك[2] ، ثم هل ماتت قرائح شعراء الأوس والخزرج بعد الإسلام؟ وكم هي الحروب والأحداث التي شهدها عصر صدر الإسلام ؟ وكم مقدارها وضخامتها بالنسبة لحروب محدودة بين قبيلات صغيرة؟ وكم سيكون قد قيل في ذلك من شعر شعراء القبائل المسلمة؟ خصوصاً وصف المعارك الكبرى التي شاركت فيها عشرات القبائل العربية، كذلك التغني بالبطولات، وتسطير نشوة الفتح ، وما إلى ذلك من بعد ديني وربما قومي ، وقبل ذلك وصف رحلات الغزو وفراق الأهل وبكاء الأوطان، وتسطير آيات الشوق من الأهل القابعين ، ثم بكاء الشعراء ، والتغني بفضل الجهاد والشهادة. فهل يعقل أن يكون ما قيل في يوم بعاث من الشعر أكثر وأقوى مما قيل في القادسية أو اليرموك أو نهاوند أو حتى بدر وأحد؟

بل إن قريشاً القبيلة القليلة الشعر والشعراء قبل الإسلام قد بُرز لها شعراء عديدون عندما احتكت بالمسلمين عسكرياً أمثال:(ابن الزبعرى، وابن خطل ، والحارث بن هشام ، وأبو عزة الجمحي ، وضرار ابن الخطاب الفهري ،

---

[1]) العقد الفريد ١١٨/٦ .

[2])على سبيل المثال ينظر:عصر الإسلام د.شوقي ضيف رحمه الله في أكثر من موطن منها :١٦٧،١٦٦،١٦٥.

والحارث بن عبد المطلب ، وأبو دهبل المخزومي) وغيرهم ، فهل فتقت معارك الإسلام ألسنة قريش ، وأبكمت ألسنة المسلمين؟

٢- *بلاغة القرآن الكريم وفصاحته:*

لا خلاف أن القرآن الكريم يمثل قمة البيان العربي السامقة والمثل الأعلى في الفصاحة والتفوق البلاغي ، بما حواه من أسلوب محكم وتصوير فريد، وثراء ورقي لغويين، وتنوع في شتى مجالات فنون الكلمة ، وما حواه من موضوعات شتى ، وأساليب متعددة: ترغيب وترهيب ، وعد ووعيد ، قصص ووعظ ، تشريع وتاريخ ، وصف وحوار ، تقديم وتأخير ، إيجاز وحذف ، إنشاء وإخبار، إلى غير ذلك ، والعرب يقرؤونه صباح مساء ، فلاشك أن طباعهم ستتهذب بآدابه وصياغته ، وأن لغتهم سترقى متأثرة بلغته، وأساليب بيانهم ستقتبس من أسلوبه، وموضوعاتهم ستقتبس من معين موضوعاته ، أدرك ذلك د. يحيى الجبوري حين قال: " كان ديدن الشعراء المسلمين استلهام المعاني القرآنية في أشعارهم ... فقد زينوا شعرهم بألفاظ القرآن الكريم ومعانيه، واستلهموا من الآيات القرآنية صفة الجنة والنار، وعبروا عنهما في أشعارهم، كما أفادوا من القصص القرآني في ذكر الأنبياء والأقوام البائدة ، ومصائرهم ، ولم يغادر الشعراء اسماً ولا معنى من معاني القرآن الكريم إلا أفادوا منه في أشعارهم ، فنجد في معجم هؤلاء الشعراء شيوع معان ومفردات من مثل : الإيمان والإسلام والنبي والرسول، والشهادة والشهيد والصلاة والركوع والسجود والصيام والحج والهدى والضلال، والحمد لله رب العالمين، وذي العرش، ورب المشارق والمغارب، وفي سبيل الله، وأولياء الله، والكفر،

والشرك والنفاق، وغير ذلك ويكاد الشعراء ينظمون المعاني القرآنية بألفاظها التي جاءت في القرآن"(١). وطبيعة النفس البشرية تطمح وترقى وتنشط إذا رأت أمامها مثلاً عليا، ونماذج حية، فإذا كان من المسلم به أن" بلاغة القرآن وفصاحته الدافع الأول للنشأة الحقيقية للبلاغة -العربية- التي تقوم على أسس ومبادئ ثابتة بعد أن كانت مجرد إشارات وانطباعات"(٢)، كما أن القرآن الكريم كان المحور والدافع لنشأة كثير من العلوم العربية ، أفلا يكون دافعاً لارتقاء الشاعر، وفاتحاً لإلهامات وإبداعات شعرية جديدة ؟

وإذا كانت رواية جيد الأشعار ، وحفظها يعد محفزاً للقرائح ، وعاملاً من عوامل الارتقاء الشعري ، أفلا يكون للقرآن مثل ذلك الأمر على الأقل؟

٣- *تجمع القبائل العربية :*

مثلت المدينة المنورة مركزاً تجمع فيه المسلمون المهاجرون من شتى القبائل ؛ إذ كانت الهجرة إليها واجبة شرعاً قبل فتح مكة ، وبعد فتح مكة استقطبت المدينة المسلمين كونها عاصمة الدولة، ومركز الإشعاع الديني، ومبعث الجيوش، ثم إن جيوش الفتح أيام الراشدين كانت مكونة من قبائل العرب المختلفة قحطانيها وعدنانيها، وكلهم يصدرون عن أمر واحد ، ويسعون لغاية واحدة ، فكان تجمعهم ذاك فرصة تسهل تبادل الأشعار ، وتلاقح القريض، وتنقيح القصيد ، وكثرة وسرعة وسهولة الرواية والنقل ، كما أنه سيولد نوعاً

---

١) المعاني القرآنية في شعر صدر الإسلام والعصر الأموي ص٤/٥ .

٢) أثر القرآن في تطور البلاغة والنقد ص٩٩ .

من التنافس الأدبي ، على نحو ما كان يحصل من تنافس قتالي في ميدان المعركة بين القبائل المختلفة.

٤-اتساع الأفق وتنوع البيئات :

كان الشاعر الجاهلي منزوياً في الصحراء ، محصوراً في عالم محدود الأجزاء والعوامل، الأمر الذي يجعله محصور الفكر، محدود الأفق، قاصر النظر، سطحي الرأي والرؤى ، فضلاً عن أمية كثيفة ، وجهالة قاتمة ، وخواء في الفكر، فلما جاء الإسلام أخرجه من الصحراء إلى تخوم الأنهار والمدائن ، ورفع شأنه، وفتح أفقه على العالمين، وأثرى لغته وغذى فكره ، وربطه بعالم السماء مكاناً، وبعالم الآخرة زماناً ، وملأ قلبه إيماناً يفخر به، وعقله فكرة وعقيدة ينافح عنها، وأصبح سيداً بعد أن كان مسوداً، وذا همة وطموح وغاية بعد أن كان هملاً ، ولم يغلق أمامه وسائل الإبداع، ولا عناصرها وموضوعاتها، إلا ما يمنع منه العقل وأكثر الأعراف البشرية من غزل فاحش وعصبيات مقيتة، أو هتك للأعراض، بل لم تكن هذه موجودة عند الشاعر الجاهلي إلا بنسبة ضئيلة لو عزلناها من شعره ما أثر على قيمته ومستواه ، ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يعجبه أن يسمع من أشعار الجاهلية ، بل كثيراً ما استنشدها ، ونادراً ما اعترض على معنى أو لفظ ، ولا نعرف له صلى الله عليه وسلم اعتراضاً على صورة، بل "تجد كثيراً من أغراض الشعراء الفحول في الجاهلية قد قال بها الشعراء المخضرمون وتحدثوا بها أمام الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم والخلفاء ، وفي المناسبات الكثيرة، ولم تكن تلك الأغراض والصور الغزلية والخمرية محرمة عليهم ذلك التحريم القاسي الذي تصوره بعض النقاد، فأنتج

تصورهم الخاطئ ذلك أحكاماً خاطئة، وبنوا عليها أراء ومواقف خاطئة ، وحاولوا أن يبحثوا لها عن أدلة وبراهين ، فالأغراض الشعرية مثل النسيب والتشبيب، والمقدمات الغزلية، والهجاء والفخر، ووصف الدنيا والزمن والأطلال كل هذه الأغراض قالها المخضرمون من الشعراء ، ومنهم حسان بن ثابت الأكثر تقرباً فيهم للرسول صلى الله عليه وسلم، وأكثرهم تأثراً بالإسلام، بل هو شاعر النبي صلى الله عليه وسلم، وسلفه(١)، وشاعر الإسلام الأول"(٢).

فهل من مسلمات الأشياء ، ومعقولات الأمور ، ومنصفات الأحكام أن يستوي : حال الشاعر ، وعقله ، وأفقه ، وشعره قبل الإسلام وبعده بأحداثه العظام ، ومع القرآن بفصاحته وبلاغته ودونه؟ ناهيك عن أن ينحط أو يتوقف أو يتراجع.

٥- *القرب الزمني من عصر التدوين :*

فضلاً عما أسلفناه من عوامل كان من المفترض فيها أن ترتقي بشعر صدر الإسلام مكاناً أعلى ، وتبوئه منزلة أسمى ، كذلك فإن عصر صدر الإسلام أقرب إلى عصر التدوين من العصر الجاهلي ، وأحداثه أشهر وأكثر وأكبر، وكثرة الجموع التي تساعد على كثرة الرواة ، وتنوع البواعث وتعددها : ديني ، قبلي،

---

١) سلف الرجل أخو امرأته،وكانت تحته سيرين القبطية أخت مارية القبطية أم إبراهيم بن النبي صلى الله عليه وسلم.

٢) أزمة الشعر في صدر الإسلام ص١٦١-١٦٢.

قومي فمن المتوقع، والمعقول أن يكون شعره أقوى وأبقى ، والذاهب منه أقل من الذاهب من شعر الجاهلية.

٦- *انتشار الكتابة:*

انتشرت الكتابة بعد الإسلام كثيراً ،وتيسرت أسبابها على نحو أكبر، فمعنى هذا أنه كان من الممكن أن تنظم إلى جانب الرواية في حفظ شعر صدر الإسلام وتدوينه.

إذا عرفنا ذلك كله، وعرفنا أيضاً أن اللغة مازالت فصيحة لم تشبها عجمة ، ولم يتأثر العرب بعد بالموالي، وليس ثمة عائق من دين كما أشرنا، أو مانع من سياسة، فما الذي حل بالشعر، وما الذي أصاب القريض ؟

ذلك ما دفع للحيرة، وولد اختلاف الآراء ، وحاول من تناول شعر صدر الإسلام أن يصل إلى عمق الأزمة، ويجلو غشاها، أو ينفي وجود الأزمة من أساسها ، وذلك إنكار لأمر ثابت وشيء واضح ، والدافع وراء ذلك كله عدم الوقوع على الأسباب الحقيقية الكامنة وراءها، وهو ما يعقد الأمر ويزيد في تأزيمه ولا يحل الإشكال .

١- الرواة سبب ضعف شعر صدر الإسلام

سبق لنا التأكيد أن الأزمة في شعر صدر الإسلام أزمة حقيقة، لا ينبغي أن ننكرها أو نتغاضى عنها انطلاقاً من أي مسوغ. وسبب ذلك وعلته فيما أرى ليس جفاف القرائح ، ولا موت الشعراء ، ولا محاربة الدين للشعر ، ولا انشغال العرب عن الشعر بالقرآن والفتوح ، لكنما سبب ذلك وآفته يعود إلى الرواة ، فهم في رأيي وحدهم يحملون وزر ذلك ، وعلى عاتقهم يلقى عبؤه.

وحتى يكون الرأي واضحاً، والإدعاء معللاً سنقسم الرواة إلى أصناف ، ونبين مقدار دورهم وأثره في صنع هذه الأزمة:

١- رواة أهملوا .

٢- رواة قصروا .

٣- رواة أساءوا عن غير عمد .

٤- رواة تعمدوا الإساءة.

وإن كان الأمر كله إساءة وتقصير، لكن ذلك دركات متباينة،ودوافع مختلفة، وإليك بيان ذلك:

١- الرواة الذين أهملوا :

ويندرج تحت هذا الصنف أكثر أئمة اللغة ورواة الشعر من الطبقة الأولى والثانية، الذين أسسوا لجمع الشعر، وتدوين اللغة ، وأرسوا كثيراً من المبادئ ، وأصبحوا قدوة في ذلك لمن بعدهم ، وكان سلطانهم نافذاً وقولهم مسموعاً في الوسطين العلمي والسياسي ، وهؤلاء كان كل وكدهم وغاية جهدهم رواية الشعر الجاهلي، وهذا الأمر أبلج لا يحتاج إلى دليل أو برهان، ومن أراد ذلك فليرجع إلى المفضليات والأصمعيات ، ولينظر كم سيجد فيها من شعر الجاهلية وشعر الإسلام، فإذا كان المفضل إمام الكوفة وثقتها، والأصمعي إمام البصرة وراويتها لم ينقلا لنا شيئاً ذا بال من شعر صدر الإسلام، بل حتى ما نكراه من شعر المخضرمين هو ما قالوه في الجاهلية لا في الإسلام، فكيف ستعرف الأجيال اللاحقة شعر وشعراء صدر الإسلام؟. وليس الأمر أحسن حالاً في طبقات ابن سلام فطبقته الأولى من شعر الإسلاميين ابتدأها بالأخطل والفرزوق وجرير والراعي النميري، وفي الثانية،

البعيث، والقطامي ، وكثير وذي الرمة وكلهم أمويون وهكذا، وأكثر ما نكر من شعر المخضرمين على قلتهم هو ما قالوه في الجاهلية .ويوضح الأمر أكثر قول الأصمعي : "جلست إلى أبي عمرو بن العلاء ثماني ، وفي رواية عشر حجج فما سمعته يحتج ببيت شعر إسلامي ، وسئل عن المولدين فقال ما كان من حسن فقد سبقوا إليه ، وما كان من قبيح فهو من عندهم"[1]، فإذا كان هذا صنيع إمام العربية وراوية أشعارها ورأس الجيل الأول في البصرة في زمانه، بل وإمام في الدين والقراءة ، وفيه يقول الجاحظ : كان أعلم الناس بالغريب والعربية وبالقرآن والشعر، وبأيام العرب وأيام الناس، وإذا كان ذاك تحيزه ضد الشعر الإسلامي فمن ذا سينقله لنا؟ ومن ذا سيدونه ويهتم به؟ بل كيف سنعرف أنه كانت هناك أشعار في صدر الإسلام ؟

وسبب ذلك ليس تميز الشعر الجاهلي ، أو روعته وجماله ، وهي الأساس والوظيفة الأولى حتى تكتسب فعاليتها المحققة لبقية الوظائف كما يقول د.صلاح فضل[2] ، ولا كذلك ضعة ورداءة الشعر الإسلامي، بل لأنهم كان ينظرون إلى الشعر باعتباره قيمة لغوية، لا باعتباره قيمة جمالية فنية ؛ لذلك كانوا ينظرون إلى الشعر الجاهلي نظرة فيها إجلال وإكبار بصرف النظر عن قيمته الجمالية ومستواه الأدبي الفني، بل كانوا يعطون لغرائب أشعار الجاهلية وشوارد شواهدها، وحوشي ألفاظها كل عنايتهم وجهدهم مهما كانت قيمتها الجمالية ، ويبذلون في ذلك الجهود المضنية، ويكابدون الأسفار والاغتراب ."وكانوا يتوغلون في نجد حيث المادة

---

[1]) العمدة ١/٧٨-٧٩

[2]) جماليات الحرية في الشعر ،ص٣.

اللغوية الفصيحة التي يجمعونها من هنا وهناك، ويملؤون بها حقائبهم"(١). وهم في ذلك يتنافسون ، وبه يتفاخرون يقول أبو عمرو بن العلاء لا أقول قالت العرب إلا ما سمعت من عالية السافلة، وسافلة العالية "يقصد الجزء الغربي من نجد وما يترامي إليه من السفوح الشرقية لجبال الحجاز"(٢)، وهي مناطق البادية الفصيحة التي بها يحتج، وعنها تؤخذ الفصحى . وآخر أنفق من عمره في البوادي سنينا، والكسائي أنفد سبعين محبرة في البادية ينقل عنهم."وللأصمعي روايات كثيرة حدثنا بها عن أسفاره وتجواله في الصحاري النائية بحثاً عن اللغة والأدب، وهي بكثرتها تدل على أنه تعشق البادية وعرف مسالكها لطول ما أرتادها"(٣). وكما بذلوا جهوداً في الترحال والجمع والنقل، فقد بذلوا جهوداً كبرى في التمحيص والتحري بغية الوصول إلى الصواب، ونفي الخطل والخلل في كل مسألة تتعلق بمادة الشعر القديم ولغته، ولبيان شيء من ذلك نذكر نموذجاً واحداً يسيراً حول التحقق من قائل القصيدة التي مطلعها :

أحار بن عمرو كأني خمر ويعدو على المرء ما يأتمر

فلا وأبيك ابنة العامري لا يدعي القوم أني أفر(٤)

ليس قصدنا أن نذكر كل ما قيل حول هذه القصيدة بغية تنقيحها أو ما يتعلق بها، فلو أتيح لنا ذلك فإنه سيكون نموذجاً مفيداً في بيان مقدار الاهتمام بالشعر

---

١) العصر العباسي الأول ص١١٩ .

٢) السابق نفسه .

٣) الأصمعي حياته وأثاره ص٦٣ .

٤) ديوان امرئ القيس ص٥٧-٦١ .

الجاهلي، فقد قيل فيها الكثير وبذل الكثير ، ابتداءً من اختلافهم حول مطلع القصيدة هل هي من البيت المذكور هنا أولاً أم من البيت الثاني؟ كما اختلفوا في طائفة من ألفاظها ، وفي عدد أبياتها وفي ترتيب بعض أبياتها إلى غير ذلك من الأمور، لكنا سنقتصر على ذكر بعض كلامهم حول قائل القصيدة فهي إشارة كافية لما نريده: فهي لامرئ القيس على رواية المفضل وأبي عمرو الشيباني، وهي لرجل من النمر بن قاسط يقال له : ربيعة بن جشم عند أبي عمرو بن العلاء كما روى عنه الأصمعي، وتابع الأصمعي أستاذه متابعة شديدة فقد أنكر أن تكون القصيدة لامرئ القيس على ما نقل عنه أبو عبيدة ، وإنما هي لربيعة بن جشم النمري، في حين يقطع أبو عمرو الشيباني بأنه لم يشك أحد أن هذه القصيدة لامرئ القيس لكن تختلط بها أبيات للنمري .

أما أبو عبيدة فيبدو ملتزماً برأي أبي عمرو الشيباني، فقال عند تقديمه لرائية امرئ القيس : وقد يخلط قوله هذا بقول النمري ، على أنه أحياناً يتراجع في رأيه هذا فنجده يقول : وقد تروى هذه الأبيات لربيعة بن جشم النمري.

فنحن أمام رأي تنازع فيه أربعة من أئمة اللغة والأدب[1]، وهو أمر بسيط لا ينبني عليه كبير أمر ولا كثير عمل، وهذا مسلك جميل متميز ، وهمة عالية ، وعزيمة قوية نافذة خدمت العربية والشعر الجاهلي كثيراً ، لكن كم أعطي شعر صدر الإسلام من ذلك الجهد والعناية والاهتمام الذي حازته نصوص الشعر الجاهلي؟ حتى لقد أثار هذا الصنيع بعض أئمة الأدب والنقد من الجيل الثالث ومن بعدهم، يقول ابن قتيبة وهو شاهد حال : "فإني رأيت من علمائنا من

---

[1]) ينظر: النقد عند اللغويين في القرن الثاني ص٩٤-٩٥ .

يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ، ويضعه موضع متخيره"[1]. ويقول بلهجة تشوبها حسرة واستنكار من التحيز للقديم : "وكان أبو عمرو بن العلاء يقول : لقد نبغ هذا المحدث وحسن حتى لقد هممت بروايته ، وكان لا يعد الشعر إلا ما كان للمتقدمين"[2].

إذاً ذنب الشعر الإسلامي أنه إسلامي متأخر عن العصر الجاهلي ، وإن كان جيداً حسناً نابغاً ، فتلك أمور لا تشفع له بالحفظ والرواية والتدوين، وهذا أمر مشهور عن أئمة العربية الأوائل. فكم هو محزن حقاً إهمالهم شعر صدر الإسلام ، وكيف كان سيصبح شأنه وكما كان سيستفيد لو أنهم صنعوا معه صنيعهم مع الشعر الجاهلي؟ ومما تجدر الإشارة إليه أنه لم يكن هذا الإهمال والتحيز صنيعهم مع شعر صدر الإسلام فحسب، بل مع كل شعر قيل بعد الإسلام ما لم يكن قائله من أعراب البوادي النائية، فعندما أنشد إسحاقُ الموصليُّ الأصمعيَّ قوله[3]:

هل إلى أن تنام عيني سبيل ... إن عهدي بالنوْم عهد طويل
غاب عني من لا أسمي فعيني ... كل يوم وجداً عليه تسيل
إن ما قل منك يكثر عندي ... وكثير مما تحب القليل

---

[1]) الشعر والشعراء ص٢ .

[2]) السابق نفسه ، وينظر العمدة ٧٨/١.

[3]) ينظر الوساطة ص٥٠.

موهماً إياه أنه لبعض الأعراب القدامى، جعل يعجب بها ويرددها، فلما قال له : إنها ابنة ليلتها وأنها له، قال لا جرم إن أثر التوليد فيها بين . ومثل هذا الموقف كثير، غير أن الجناية اقتصرت أو كثرت في حق شعر صدر الإسلام، لأن ما قيل من الشعر بعد عصر صدر الإسلام توافرت له عوامل البقاء من استقرار وعصبيات ودوافع أخر، ثم إن كثيراً من أبناء الجيل الثالث، فمن بعده من الأئمة : مثل الجاحظ، وابن قتيبة ومن بعدهم بدأت تتغير نظرتهم إلى الشعر فأصبحوا ينظرون إليه باعتباره قيمة أدبية جمالية، لا باعتباره قيمة لغوية محضة، وتراجعت عندهم الموازين، فلم يعد لميزان القدم عندهم ذلك الشأن، بل ميزان الجودة والقوة والجمال بصرف النظر عن زمنه وقائله ، فأدرك هؤلاء شعر العصر الأموي، وشعر معاصريهم فأشادوا بجيده ، وكان لهم دور في المحافظة عليه، بينما كان أكثر شعر صدر الإسلام قد تفرق وذهب.

٢- الرواة الذين قصروا :

وهم المؤرخون الذين اهتموا بالأحداث والوقائع ونقل ما دار فيها، فإنهم نقلوا لنا ضمن ما نقلوه ما قيل في الأحداث من أشعار، ولهم يعود كبير فضل في كثير مما وصل إلينا من شعر صدر الإسلام ، لكن عملهم هذا شابه نقص أتاهم من ناحيتين:

الأولى : أنهم لم يعطوا الشعر حقه من العناية ودقة الرواية والاهتمام ؛ ذلك أنه يمثل بالنسبة لهم ولعملهم أمراً ثانوياً، فعملهم الرئيس نقل الأحداث، ومجريات الأمور ، والعوامل المؤثرة البارزة ، نتج عن ذلك عدم الدقة الكافية في رواية الشعر، والاختلاف في رواية الأبيات، كذلك الحذف أو الإضافة في المروي، واختلال واختلاف في نسبة الشعر .

الثانية : اجتزاؤهم في نقولهم ، واقتصارهم غالباً على الأبيات المباشرة للحدث، وإغفالهم ما ليس له علاقة بذلك ، لأنه خلا من الدلالة التاريخية المطلوبة ، وقد يكون ذلك المهمل هو الأرقى فنياً والأجمل أدبياً، كمقدمات القصائد، والخاتمة.

ومن المعلوم أن مقدمات القصائد أكثرها ذاتية ، وهي بنفسية الشاعر ألصق ، وتعبر عن نفسيته وشعوره أو لا شعور، وتظهر فيها على نحو أكبر كثير من عناصر التجربة الشعرية عند الشاعر، وفقدانها يؤثر تأثيراً سلبياً كبيراً على القصيدة وقيمتها الفنية وجودتها ، وقد ركز القدامي على مقدمات القصائد ومطالعها كثيراً ، وكانوا يعدونها من أحسن شيء في صناعة الشعر(١) وإهمالها أو اختزالها يحرمنا الجانب الشعري الأهم ، ويوقعنا في أحكام ناقصة ، وأوهام خاطئة.

هذا الصنيع من الرواة المؤرخين يفسر لنا ظاهرتين بنائيتين اتسم بهما شعر صدر الإسلام دون سواه ، هما:

١- كون الغالبية العظمى من شعر صدر الإسلام مقطوعات ، لا قصائد.

٢- وكون قصائده تخلو من المقدمات التقليدية كثيراً، ومن المقدمة بشكل عام.

---

[١]) بناء القصيدة العربية ص٢٦٩ .

وبسبب هذين الأمرين توهم كثير ممن تناول الحديث عن شعر صدر الإسلام أن ذلك ملمحاً تجديدياً في بنية القصيدة العربية في صدر الإسلام ، نتيجة التأثر بالإسلام ، وهو وهم محض ينقضه واقع القصائد الأموية . فالمسألة ليست على هذا المقدار من البساطة والسرعة ، يجيء عصر صدر الإسلام فيترك الشعراء المقدمات ، ثم يدخل العصر الأموي فيرجع الشعراء إليها ، وكأنها ضغطة زر ، إنها أعراف أدبية ، وعادات فنية دأب عليها الشعراء أجيالاً فيحتاج تغييرها إلى تدرج ، وإلى أجيال ، لاسيما مع انتفاء تأثير العوامل الأخر: دينية ، واجتماعية ، وغيرهما.

وقد تنبه لشيء من أثر المؤرخين بعض المحدثين يقول د. رعد الزبيدي:"ومما يزيد في وضوح ضعف شعر صدر الإسلام ما وصل إلينا من نتاج شعري كثير من مقاطع القصيدة الضعيفة التي قيلت في مواقع الحروب ، واللقاءات الدموية بين جيوش المسلمين والأعداء ، أو ما حصل في أحداث الردة ، والتي تنسب أكثرها إلى شعراء غير معروفين، ولا يملكون حظاً من المكانة الأدبية قبل الإسلام ، بل إن أكثر ما وصلنا من هذه الأشعار جاءنا عن طريق كتب التاريخ والسير"(١).

٣- رواة أساءوا عن غير عمد:

نموذج ذلك ما يوضحه لنا قول ابن سلام الجمحي : " وكان ممن هجن الشعر وأفسده ، وحمل كل غثاء محمد بن إسحاق مولى آل مخرمة بن المطلب بن

---

١) أزمة الشعر في صدر الإسلام .ص١٧٦.

عبد مناف ، وكان من علماء الناس بالسير، فنقل الناس عنه الأشعار، وكان يعتذر منها ويقول : لا علم لي بالشعر، إنما أوتى به فأحمله ، ولم يكن ذلك له عذر فكتب في السير من أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعراً قط ، وأشعار النساء فضلاً عن أشعار الرجال" (١). وصنيع ابن إسحاق وأمثاله ليس خاصاً بشعر صدر الإسلام ، لكن نصيبه أكبر، والجهالة بشعره أكثر، والعناية به أنزر، ثم إن ابن إسحاق وأمثاله هم أكثر من تولى نقل شعر صدر الإسلام ، ولم يقيض له بعد ذلك من أزال عنه السوء ، ورد الأمر إلى نصابه ، فجاء بعد ذلك من زعم أن ذلك هو شعر صدر الإسلام، فبنى على ذلك ما بنى من الأحكام.

٤-رواة تعمدوا الإساءة :

وهم كذبة الرواة ، ومنتحلو الأشعار، يدخلون في أشعار الشاعر ما ليس له، فإن كان فحلاً وأدخلوا في شعره الغث أساءوا إلى شعره وأسقطوه ، وإن يكن العكس فإن ذلك يبعث على الشك والاضطراب ، ثم الإسقاط ، من ذلك ما رواه ابن سلام قال : "أخبرني أبو عبيدة أن داود بن متمم بن نويرةً قدم البصرة في بعض ما يقدم له البدو في الجلب والميرة ، فنزل التحيت ، فأتيت أنا وابن نوح فسألناه عن شعر أبيه متمم ، وقمنا له بحاجته وكفيناه ضيعته، فلما نفد شعر أبيه جعل يزيد في الأشعار، ويضعها لنا، وإذا كلام دون كلام متمم، وإذا هو يحتذي على كلامه، فيذكر المواضع التي ذكرها متمم والوقائع التي شهدها، فلما

---

١) طبقات ابن سلام ص٤٤ .

توالى ذلك علمنا أنه يفتعله"[1]. ومتمم شاعر أسلم وعايش صدر الإسلام ، قتل أخوه مالك في حروب الردة وله فيه رثاء جميل.

ويقول ابن سلام أيضاً في المضمار نفسه:"وكان أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها حماد الرواية ، وكان غير موثوق به، كان ينحل شعر الرجل ويزيد في الأشعار"[2] ، وقال:"أخبرني أبو عبيدة عن يونس قال: قدم حماد البصرة على بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري فقال ما أطرفتني شيئاً، فعاد إليه فأنشده القصيدة التي في شعر الحطيئة في مديح أبي موسى الأشعري، فقال ويحك، يمدح الحطيئة أبا موسى ولا أعلم به وأنا أروي للحطيئة، ولكن دعها تذهب في الناس"[3] وإن كنا لا نستبعد أن هذه القصة مشوبة بدافع التعصب البصري ضد أهل الكوفة،وكذلك قول ابن سلام السابق، لكن الأمر على جميع الوجوه لا يخلو من الدلالات التي بسببها أوردنا هذه النصوص ، ثم هناك غيره شواهد أخرى كثيرة.

وقد أتي شعر صدر الإسلام أيضاً من هذا القبيل على نحو يقل في غيره، فنصيبه منه وافر وحظه منه زاخر، لكثرة الدواعي، وغفلة العلماء عن روايته وحمايته . ولنقف عند حسان بن ثابت وحده ، وماذا قيل فيما دخل عليه ، يقول ابن سلام : "وأشهرهم حسان بن ثابت وهو كثير الشعر جيده ، وقد حمل عليه

---

[1]) ا لسابق ص٥٦ .

[2]) السابق نفسه .

[3]) السابق نفسه .

ما لم يحمل على أحد، لما تعاضهت قريش واستبت، وضعوا عليه أشعاراً كثيرة لا تليق به"[1]. ويقول د. شوقي ضيف : "والحق أن شعر حسان الإسلامي كثر الوضع فيه، وهذا هو السبب فيما يشيع في بعض الأشعار المنسوبة إليه من ركاكة وهلهلة ، لا لأن شعره لان وضعف في الإسلام كما زعم الأصمعي، ولكن لأنه دخله كثير من الوضع والانتحال، ونحن نوثق شعره في الجاهلية إلا ما اتهمه الرواة"[2] ، هكذا إذاً . . شعره الجاهلي يوثق أما شعره الإسلامي فالنظرة إليه مغايرة ، والسبب واضح ، إنها جريمة المنتحلين . صنيع د. شوقي ضيف هنا ، وهو من أكثر الناس اعتدالاً في هذه القضية هو صنيع كثير من القدامى والمحدثين إزاء شعر صدر الإسلام : الشك ، والتردد ، أو التوقف ، أو الإسقاط ، كل ذلك بسبب صنيع طائفة من الرواة . وقال د. عبد القادر القط : "وأغلب الظن أن كثيراً من شعر هذا الشاعر(حسان) منحول عليه، فمهما يبلغ تأثر شاعر إسلامي بلغة المجتمع الجديد لا يمكن أن يصل إلى هذا الحد من الركاكة التي تشبه ركاكة الشعر العربي في العصور المتأخرة؟"[3].

ولم يكن حسان وحده هو الذي تعرض شعره للدس والانتحال والتشويه، ولكنه أشهر شاعرٍ إسلامي نبه النقاد والعلماء والرواة إلى ما أصاب شعره ، على أن ذلك تنبيه علم لم يرق إلى مستوى الدفاع الجاد، أو يغوص في

---

[1]) نفسه ص١١٥.

[2]) العصر الإسلامي ص٨١ .

[3]) في الشعر الإسلامي والأموي ص٣٣ .

أعماق شعره يخلصه من الدخل والدغل ، وإلا فإن غيره كثيرين قد قُوِّلوا ما لم يقولوا، وسُلِبوا ما قالوا، أكد يونس بن حبيب قال : ما صح عندنا ، ولا بلغنا أن علي بن أبي طالب قد قال شعراً إلا هذين البيتين :

تلكم قريش تمنتني لتقتلني فلا وربك ما بروا وما ظفروا

فإن هلكت فرهن ذمتي لهم بذات روقين لا يعفو لها أثر(١)

وله الآن رضي الله عنه بين أيدينا ديوان مطبوع متداول، فهل كان له تلك الشعر حقاً، ولكن جهله كله يونس على جلالته وعلمه ودرايته ، في حين علمه غيره ؟ فإن قيل نعم فكم كانت ضيعة شعر صدر الإسلام ومهانته عند أئمة العربية ورواتها أن يجهل إمام مثل يونس قصائد وأشعار ديوان كامل لمثل علي رضي الله عنه؟ وإن قيل لا فلنا أن نعلم مقدار الإساءة والانتحال الذين تعرض لهما شعر وشعراء صدر الإسلام حتى يختلق ديوان كامل.

أخيراً : أرجو أن أكون بهذا البحث الموجز قد وفقت فيما هدفت إليه من تأكيد حصول أزمةٍ لشعر صدر الإسلام ، وبيان السبب الحقيقي وراء تلك الأزمة. وإلا فعلى الأقل أكون ساعدت في تحريك المياه الراكدة المتعلقة بهاتين القضيتين.

الخلاصة وأهم الاستنتاجات

يمكن إيجاز ذلك بالعبارات الآتية :

---

١) شرح شواهد المغني ٥٢١/٢ ، النقد عند اللغويين في القرن الثاني ص١٢١.

١- الظاهر أن الأصمعي هو أول من انتبه أو لفت الانتباه إلا أن هناك أزمة في شعر صدر الإسلام ، وأول من حاول تعليل ذلك.

٢- الحكم على ضعف الشعر في صدر الإسلام انطلق من أمر حاضر لدى أصحاب هذا الحكم وهو نصوص الشعر الباقية، أي أنه حكم صحيح ودقيق ، لكن على واقع الشعر لديهم إلا على واقع الشعر في حينه ، فهم لم يطلعوا على الغيب، ولم يكونوا حينها موجودين، كما أن هذا الحكم لم يكن دافعه شعوبية ولا هوى خصوصاً عند المتقدمين منهم .

٣- المدافعون عن قوة الشعر في صدر الإسلام دافعهم في الغالب عاطفة دينية، لا فنية ، ومنطلقهم أن الإسلام لم يمنع الشعر أو يحاربه.

٤- أتيح لشعر صدر الإسلام أمور مساعدة له ومقوية لجذوره لم تتح للشعر الجاهلي، وهذه تؤكد أن الضعف الذي وجد فيه لم يكن ضعفاً داخلياً أو ذاتياً ، أو آنياً، بل توحي أن هناك شيئاً آخر، ذلك هو ما لم تثره الدراسات السابقة على أهميته الكبرى.

٥- قصر أئمة العربية ورواة الشعر- وهم الرواة الثقات- اهتمامهم على الشعر الجاهلي، ناظرين إلى الشعر نظرة ذات قيمة لغوية ، لا فنية جمالية ، وهو ما جعل مصادر الشعر الإسلامي ضئيلة، وغير موثوقة ؛ كونها لا تلبي حاجتهم.

٦- معظم ما بين أيدينا من شعر صدر الإسلام مصادره تاريخية،لا أدبية ،هذا الأمر أساء إليه كماً وكيفاً.

٧- كون شعر صدر الإسلام مقطوعات ، وقلة التزامه بالمقدمات في قصائده ناتج عن طبيعة رواته وحامليه الذين هم مؤرخون في الغالب.

٨- كان للانتحال دور في الإساءة إلى شعر صدر الإسلام ورميه بالضعف.

٩- يحتاج شعر صدر الإسلام إلى جهود كبيرة تعيد النظر في كل ما يتعلق به، بمعزل عن التعصب والمؤثرات الخارجية.

١٠-حتى ننصف شعر صدر الإسلام ينبغي أن نحكم عليه ونحاكمه انبثاقاً من عصره ومقاييسه وقيمه وأهدافه ومتغيراته ، لا من مرآة العصر الجاهلي وشعره وخصائصهما.

والله أعلم. والحمد لله أولاً وأخيراً وعلى كل حال.

قائمة المراجع

القرآن الكريم .

١. أثر القرآن في تطور البلاغة والنقد. سعد محمد التميمي، مجلة الباحث الجامعي جامعة إب. الجمهورية اليمنية العدد (٤) لسنة ٢٠٠٢م .

٢. الأدب الإسلامي في صدر الإسلام والعصر الأموي د. عابد توفيق الهاشمي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط٢ ، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م .

٣. أزمة الشعر في صدر الإسلام. د. رعد أحمد الزبيدي مجلة كلية الآداب. جامعة صنعاء، العدد ٢٤ لسنة ٢٠٠١م .

٤. الاستيعاب في معرفة الأصحاب.ابن عبد البر القرطبي.مصر.١٣٥٨هـ-١٩٣٩.

٥. الأصمعي حياته وأثاره.د.عبد الجبار الجومرد،مطابع دار الكشاف،بيروت١٣٧٥هـ-١٩٥٥م.

٦. الأغاني،أبو الفرج الأصفهاني،دار إحياء التراث العربي،بيروت،ط٢، ١٤١٨هـ -١٩٩٧م.

٧. بناء القصيدة العربية د. يوسف حسين بكار، دار الثقافة ، القاهرة، ١٩٧٩م.

٨. تجارب في النقد الأدبي التطبيقي،عودة الله منيع القيسي،دار البشير،عمان،ط١، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

٩. جماليات الحرية في الشعر.د.صلاح فضل،أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي،القاهرة ط١، ٢٠٠٥.

١٠. ديوان امرئ القيس، تحقيق د. عمر فاروق الطباع، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، لبنان .

١١. رحلة في الشعر اليمني قديمه وحديثه، عبد الله البردوني،دار العودة،بيروت،ط٣، ١٩٧٨.

١٢. الشاعر الإسلامي تحت سلطة الخلافة. د. داود سلوم، عالم الكتب. بيروت. ط٢ ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .

١٣. شرح شواهد المغني، جلال الدين السيوطي(ت٩١١هـ)،تصحيح محمد محمود التركزي الشنقيطي،مكتبة الحياة ،بيروت.

١٤. شعر صدر الإسلام بين الفكر والفن، د. علي كمال الدين الفهادي – دار الشوكاني للطباعة – صنعاء ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م .

١٥. شعر عصر صدر الإسلام من منظور التصور الإسلامي، د. محمد عادل الهاشمي، مكتبة المنار ، الزرقاء ، الأردن ، ط١ – ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م .

١٦. الشعر في صدر الإسلام والعصر الأموي، د. محمد مصطفى هدارة، دارة النهضة العربية، بيروت، ١٩٩٥م .

١٧. الشعر والشعراء، عبد الله بن مسلم بن قتيبة،عالم الكتاب، ط٣،١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م .

١٨. طبقات الشعراء، ابن سلام الحجمي، تحقيق د.عمر فاروق الطباع. دار الأرقم بيروت، ط١ ، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م.

١٩. العصر الإسلامي د. شوقي ضيف، دار المعارف بمصر ، ط٧ – ١٩٧٦م .

٢٠. العصر العباسي الأول د. شوقي ضيف ، دار المعارف بمصر ، ط٨ ، ١٩٨٢م .

٢١. العقد الفريد، ابن عبد ربه، تحقيق محمد عبد القادر شاهين، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، مصر، ط١٤١٩،١هـ - ١٩٩٨م .

٢٢. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده،ابن رشيق القيرواني،تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد،دار الطلائع ،القاهرة،ط١، ٢٠٠٦.

٢٣. في الشعر الإسلامي والأموي. د. عبد القادر القط، مكتبة الشباب. القاهرة، ١٩٨٢م .

٢٤. المصادر الأدبية واللغوية في التراث العربي.د.عز الدين إسماعيل.دار النهضة العربية،بيروت.

٢٥. المعاني القرآنية في شعر صدر الإسلام والعصر الأموي. د. يحيى الجبوري. مجلة الأدب الإسلامي. الرياض. السعودية. العدد (٤١) ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

٢٦. مقدمة ابن خلدون، تحقيق د. أحمد حامد الطاهر، دار الفجر،القاهرة، ط١٤٢٥،١هـ-٢٠٠٤م.

٢٧. مقدمة في نظرية الشعر الإسلامي(المنهج والتطبيق)عباس المناصرة،مؤسسة الرسالة،بيروت،ط١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

٢٨. مقدمة لنظرية الأدب الإسلامي،د.عبد الباسط بدر،دار المنارة،جدة،المملكة العربية السعودية،ط١، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م.

٢٩. النقد عند اللغويين في القرن الثاني،سنية أحمد محمد،دار الرسالة للطباعة،بغداد،١٩٧٧م.

٣٠. الوساطة بين المتنبي وخصومه ، القاضي الجرجاني ، تح محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي،دار القلم،بيروت،لبنان.